بسم الله الرحمن الرحيم

الجمال في الشعر العربي من منظور نقدى

بقلم الدكتور / محمود محمد لبدة

يعد الوقوف علي تحديد هذاالمصطلح "الجمال" وتحديد النقطة التى تَقِفُنَا على البعد الزمانى والمكانى لهذه القضية علي جانب كبير من الأهمية، في مثل هذه العمليات الفنية والنقدية، لأن الادب إذا كان تفسيرا للحياة، فإن النقد تفسيرالتفسير.

فالجمال :-صفة أو مجموعة صفات تلحظ في أشياء هذا الكون الصامتة والصائتة، فتبعث في النفس سرورا، وفي القلب ارتياحا، وفي العقل اقتناعا، فإذا نقلنا هذه الصفات إلي العمل الفنى، وجدناه يجمع الي جانب الجمال الخير، لأ نه جميل من حيث التشكيل الإبداعى،خَيِّرٌ من حيث محتواه الأخلاقي.

أما إذا أثار العمل الفني إحساس القارىء أو المتلقى من حيث تشكيله الجمالى وبناؤه المتماسك القوي، من غير نظر إلى القيمة الإنسانية ، فإن القبيح يعتبر جميلا، ما دام يثير هذا الإحساس، وتلك هي نظرة الفن للفن[1].

أما تحديد النقطة التى تقفنا علي أبعاد هذه القضية، وتبين موقعها على خارطة الإبداع الأدبى، فإنها بداءة تطرح علي ساحة البحث سؤالا هو:- ما المقصود بالعرب ؟ هل هم هؤلاء الأقحاح الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية، قبل البعثة النبوية الشريفة ؟

---

(١) راجع معجم المصطلحات الأدبية لمجدي وهبة صـ ٤٢، ٤٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو هم الذين انطلقوا مجاهدين في سبيل الدعوة الإسلامية يقاتلون فَيَقْتُلُون ويُقْتَلون، حتي انتشر الإسلام علي أيديهم في كل ربوع شبه الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، فتغيرت بسبب ذلك المدّ الأسلامي كثير من المفاهيم والمصطلحات واختفت أو كادت أغراض شعرية، وظهرت وقويت أغراض أخرى كثيرة ،وتحولت بفعل الروح الإسلامية مسارات المعاني والأفكار، وسَرَتْ هذه الروح في الشعر، من غير أن تعوق حركة التدفق الفنى عن مسارها، أو تضعف الروح الشاعرة في بوحها عن مكنونها، أو تنقص من جماليات البناء الأدبى فى تصميمها،

أو هم الذين اعتمد اللغويون شعرهم، وختموا عصر الاستشهاد بهم وجعلوا ساقتهم ابن مَيَّادة وَمِنْ قبله ابنُ هرمة، ثم فتحوا عصر المحدثين والمولدين ببشار ابن برد ؟

أو هم الذين ذابت أصولهم العرقية، ووراثاتهم الأخلاقية في أعماق الذات الإسلامية، فصاروابالمعيار القرآنى مسلمين، وبالولاء الإسلامى عربا ينطقون العربية ويتذوقونها، ويجيدون كأى عربى أصيل فلسفة البناء والتشكيل ؟

أو هم هؤلاء جميعا من غير تعصب أو انحصار لجنس معين، وفي عصر معين ؟

وفي تصوري أن هذا الأخير هو الصحيح، وبخاصة في مجال الأدب، لأ ن الشاعر متي امتلك الموهبة الفنية، والأداة الجمالية، وتحرك بباعث التجربة التي تحفزه إلي الإبداع، ثم انطلق يزاوج بين الشكل والمضمون من منظور عَقَدِي، يملأ مضامينه بعبق التسامى، وطهارة الإلهام، ومنظور فني يحلق به في سماوات الإبداع وينفذ منه إلي جوهر الجمال .....

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو من منظور جمالى خالص، يحمل بكارة الإبداع، وجسارة المضمون من غير نظر إلي القيم الأخلاقية ، فقد حقق المراد من الفن، وكشف عن طبيعته وخليقته دون أي تخف او تستر بأقنعة وأردية زائفة، وأعلن عن ملامح ذاته، وأعطى ثمرات نفسه، وجَنَى روحه، والبيان الفني الصحيح يستحيل عند القارىء قطعة من الحياة في صورة من صور الإدراك، وَ لَهُ إن خيرا وإن شرا بعمل النفس فيه عجبُ السحر وتأثيره وتصرفه، ولهذا قال - ﷺ - :(إن من البيان لسحرا) .

والباحث في قضية الجمال في الشعر العربي ينبغى أن ينظر أولا: إلي الجمال في القرآن الكريم، الذي أنزل بلسان عربى مبين، وإلي تعدد نواحي الإعجاز فيه، وإلى مَرَدّ هذا الإعجاز وهو النظم القرآنى الذى هو فنُّ اللغة العربية بأكملها، بحيث يجد فيه عالم اللغة الإطار القدسى الذي عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله، ويجد فيه عالم الشريعة المصباح الإلهى الذي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية.

ويجد فيه عالم الطبيعة الكون الناطق بأسرار السنن الكونية من غيبيات يكشف عنها تقدم العلم شيئا فشيئا (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفَي أَنْفُسِهِمْ حَتَّي يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) .

وسيظل الكلام فيه، والغوص في أعماق معانيه، والتفتيش في دفائنه والكشف عن خزائنه، والحرث في أرضه، والاجتهاد في تأويله و فهمه يزيد العالم علما.

وسيظل أيضا أساس الإمداد لكل أديب تام الأداة، شريف النفس نبيل الغاية، ينشد الحكمة فيلقيها في أسمى كلمة، هذه الكلمة هي التي نسميها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"الإبداع الفنى" ، أو "البيان الفنى" وهو ثمرة التجاوب الروحانى بين هذه النفس الشريفة وبين الذكر الحكيم، تنعكس أشعته علي البصيرة فتتفتح، وعلي الذهن فيصفو، وعلي اللسان فيبين ويفصح.

وعلى النقيض من ذلك يتم تمام الرذيلة في النفس الساقطة حين تنضح لؤم طبعها، وسوء سلوكها، علي العمل الفنى بعد أ ن تفرغ فيه كل أسباب الهندسة والتكوين، حتي يستعصى علي الطعن من حيث مستواه الإبداعى الشاهق وخصائصه الفنية النافذة، ومن ثم تكون (النقطة التي ينتهى فيها العلو من محيط، هي بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلي السُفل، ومن ثمّ أيضا كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق، حتي قال علماؤنا : إن الدين بمعزل عن الشعر.

فالأصل هناك سمو التعبير وجماله، وبلاغة الأداء وروعتها، ولا يكون السؤال الفنى ما قيمة هذه النفس؟ ولكن : ما طريقته الفنية ؟ وأي عجيب في ذلك ؟

أليس لجهنم حق في كبار أهل الفن ، كما للجنة حق في نوابغه ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة، أفلا تقول الجحيم : وهذه بلاغة رذائلى؟ وكيف -لعمرى- يستطيع إبليس أن يؤدى عمله الفنى ...ويصور بلاغته العالية إلا في ساقطين من أهل الفكر الجميل، وساقطات من أهل الجسم الجميل ...؟). (١)

ثم ينظر ثانيا إلى اللغة العربية نفسها، لأنها شاعرة في تقسيم حروفها وشاعرة في كلماتها ، وشاعرة في مقاطعها وتفاعيلها، وشاعرة في بيوتها

(١) وحي القلم للرافعي ١/٥٤

وحروفها (فهي لغة إنسانية ناطقة، يستخدم فيها جهاز النطق الحي أحسن استخدام يهدى إليه الافتنان في الإيقاع الموسيقى ...وقد كانت سليقة اللغة العربية هي الهداية النافعة لعلمائها، فيما اختاروه من ترتيب الأبجدية على وضعها الأخير فإن هناك تناسبا موسيقيا فنيا بين الحروف المتقابلة، لامثيل له في الأبجديات الأعجمية التي تلحق فيها السين بالباء ، أو التي يمكن ترتيبها على غير هذا الوضع دون تغيير فى دلالات الألفاظ، أو دلالات الأشكال.)[١]

وليس من شك في أن كل خصائص هذه اللغة الشاعرة لا تكون ذات أثر يسير أو كبير، إلاإذا لقيت طباعا تستطيع أن تنقل الإحساس بالمعانى والأفكار في لغة معبرة، (فاللغة ليست كيانا قائما بذاته، ولا يمكن أن تنفصل عن قائليها وطباعهم، وأذواقهم، وتقاليدهم الفنية بوجه عام.)[٢]

ثم ينظر ثالثا إذا كان ناقدا حقا إلى التجربة النفسية التى عاشها الشاعر ومدى انعكاسها علي صياغته الفنية، ويحاول إذا كان شاعرا أن يعبر عنها حتي يدرك مدي توفيق الشاعر أو إخفاقه في التعبير، ومدي إشراق بيانه أو انطفائه، وتفتح فكره أو انغلاقه، ومدي قدرته علي الجمع بين جمال الفكرة وجمال الصياغة، وجمال النغم والإيقاع.

والشعر إذا كان مكثف الدلالة بحيث تتحمل الألفاظ أقصى ما تستطيعه من المعانى، وكان متنوع الأشكال التعبيرية التي تلامس العواطف، وتبرز الفكرة، وتجلى الإحساس، وكان حلو النغم، عذب الإيقاع، وجاب به الشاعر

---

(١)قضايا ومواقف لعبد القادر القط صـ١٤، ١٥

(٢)اللغة الشاعرة للعقاد صـ ١٤، ١٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجواء الجمال، ونفذ به إلي مسالك الأرواح، كان ترجمانا صادقا لأحاسيسه وخوالجه ومشاعره، وصدق الشاعر مع نفسه، وقدرته علي الحسّ الجمالى والحس الشعرى هو الفيصل في الحكم له أو عليه، وهو المعيار في الحكم على شعره، والشعر العربي شعر غنائى، وما سُمِّى غنائيا إلا لأنه (يولد فينا كثيرا من الانفعال كالذي تولده الأغانى).(١)

وإلا لأنه من حيث تأليفه الموسيقي يمكن غناؤه علي أنغام اللحن بما يثيره من شجن أو طرب، أو انقباض أو انبساط .

والشعر الغنائى وهو أعرق فنون العربية، ليس له موضوع محدد يحبس الشاعر نفسه في إطاره، أو يطلق في ميدانه أفكاره، ومن زعم ذلك فقد حَجَرَ واسعا، وخالف سنة الله في هذا الكون .

وفى تاريخ الأدب العربى كثير من الشعراء الذين خرجوا علي النمط الشعري الموروث بما أودعوه في قصائدهم من حركة وحوار وحياة، وبما زَوَّدُوا به اللغة من إيقاعات ومؤثرات تعكس حالتهم النفسية هدوءً وقرارا، أو ثورة وانفعالا، وكان الأعشى يُسَمَّي "صُنَاجة العرب " (لقوة طبعه، وحلية شعره يخيل لك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك ...ومثله من المولدين بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا، وألينه كلاما، فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع.)(٢)

وإذا كان الأعشى وبشار والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وأبو نواس قد أثبتوا ذاتيتهم في مواجهة مجتمعهم من ناحية، وفي مواجهة الأنماط الموروثة

---

(١)النقد الأدبي لأحمد أمين ١/ ٨٠

(٢)العمدة لابن رشيق ١/ ٨٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جهة أخرى، ووافقهم علي ذلك كثير من النقاد القدامي لأن التجديد تطور واستحالة، فإن هذه الموافقة ترجع إلى أمرين :الأول:- أ ن القدرة علي الإبداع وتسوية المثال الفنى هو الذي يكشف الفرق الجوهري بين الفن والادعاء.

الثاني:- أن الصدق فى الفن هو (مطابقة الكلام لتجارب الشخص ولو كانت رزيلة، فأبو نواس حين تكلم في تجاربه في الخمر ومدحها وفي الغزل المذكر صادق مخلص، لأنه يعبر عن تجاربه الشخصية، ولو كان الموضوع غير مستساغ في الخلق.)[١]

قال قدامة بن جعفر :-(وليست فحاشة المعني في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا ردا ءته في ذاته.)[٢]

وقال القاضى الجرجانى :(فلو كانت الديانة عاراً علي الشعر، وكان سوءُ الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين. ويحذف إذا عُدَّت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير، وابن الزِّبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله - ﷺ- بُكما خُرْسًا، وبكاء مفحمين ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر.)[٣]

وإطلاق هذا القول علي عواهنه، من غير إحكامه وضبطه، ينعكس بمردودات سلبية كثيرة :-

---

(١) النقد الأدبي لأحمد أمين ١/ ١١٢

(٢)نقد الشعر صـ٦٦

(٣)الوساطة بين المتنبي وخصومه صـ٦٣، ٦٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولها :- أن محاكمة الفن بمنطق الفن لا ينسحب على جميع المواق
والحالات فعلى الرغم من كون الأدب الصادق صورة للأديب وللمجتمع في
واحد، نجد أن الانفلات من معايير الدين والأخلاق، يؤدى إلى الفوضى ور
تجره وراءها من رقاعة و ابتذال وتسكع، مما يسمى فى الأدب الحديث
«بالواقعية الطبيعية " التي تبيح الأدب المكشوف، وما يسمى «مذهب الف
للفن"!

ثانيهما :- أن للشعر مجالات كثيرة، فأعلاها رتبة ما التقى فيه
المضمون الأخلاقي النبيل بالأداء الفنى المتميز، والوجهة الدينية القوية بالجمال
البيانى المعطاء .

وأدناها دَركاً ماالتقت فيه الفكرة العابثة الساقطة بالبيان الداعر النابح .

وليس من شك فى أن تصوُّرَ النفس، وتفجُّرَ الحس في معانى الهجاء
والقبح، أو فى الجسد الأنثوي بكل أبعاده الجمالية، وتأثيراته الفعلية، وراء
ما وراء مما لا يمكن وصفه من السقوط والتسيب والجموح .

ثالثهما :- أن أصول الدين والأخلاق والقيم هي الدعامات التى تبقى
الأمم ما بقيت وتفنى ما فنيت، وقد نزلت الأديان السماوية لتحافظ عليها
وتدعو إليها لا لتقضى عليها قضاء تاما، وآية ذلك أن الله تعالى لم يرسل
رسولا واحدا وإنما أرسل رسلا كثيرين مبشرين ومنذرين .

وما رواه صاحب العمدة من قصة عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر بين
يدي النبى- ﷺ -،

ومن هجاء النجاشي الشاعر رهط تميم ابن أبي مقبل في عهد عمر بن
الخطاب، حتي قال حسان بن ثابت لعمر وقد سأله :- ما هجاهم ولكن سلح
عليهم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن هجاء الحطيئة الزبرقان بن بدر في عهد عمر أيضا[١] يدل علي ما قلناه أصدق دلالة، ولكن يبقى الشر في النهاية هو الشذوذ، والخير هو القاعدة .

رابعها :- أن تشكيل الرؤية الفنية وطرحها وفق تصورات الخيال من غير نظر إلى وخيم عواقبها، من أخطر سرطانات الشعوب وبخاصة دول الغرب التى نسيت أو نسي أصحاب الأقلام الخبيثة الذين أغرقوهم فى الوحل حتى الكواحل أن (الفن الصحيح ما مثّل الحياة الصحيحة التى يقتضيها الخلق والأدب الذى يغذى الشهوات وحدها أدب وضيع .

والفن إذا مثّل حياة الإنسان إنما يمثلها لتظهر قوة الإنسان الروحية، وبيان احتماله ومقاومته للشرور، والفن الراقى هو الذى يلهم الإنسان المعانى الشريفة ويوسع نظره إلى الحياة، ويكون مبعث قوة لملكاته .)

خامسها :- أن الصدق وهو أخص خصائص الجمال في العمل الأدبي ينبغي حين نضعه في ميزان النقد أن نقبله علي جميع وجوهه، ووجوه التأويل للصدق فى الفن كثيرة منها :- الصدق الواقعى، والصدق الخلقى، والصدق النفسى، والصدق الفنى.

وكلها مجتمعة أو منفردة صحيحة بشرطين :-

الأول :- أن تنبعث عن نفس تدرك معنى الشعور بسُمُوِّ الذات الإنسانية عن الخسائس والنقائص، وتَصْدُرُ فى كل كلمة تقولها عن حب للخير، وإيمان بالحق ونشدان للجمال .

---

(١)راجع فيما سبق العمدة ١/٤٦، ١٦٥، ١٦٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثانى :- أن يتحقق للعمل الأدبى الذى هو وعاء هذه الوجوه معنى الكثافة الدلالية فيتجدد مع كل قراءة فيه، ويمنح مزيدا من أسراره مع كل مزيد من التأمل فى تركيبه ثم يحتفظ- علي الرغم من ذلك - بكثير من أسراره المستكنة فى أغواره.

وتلك هى حقيقة الفن الراقى عند كل من حفظ حرمته، ورعى عهده وأبصر غايته ، فهو فى طريقة الموضوع الفنية لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع وهو فى إعطائه لسانا يتكلم به فى سياقه البيانى أضعاف أضعاف ما تبوح بـه اللغـة العاديـة، وهو بألفاظه ومعانيه فى السموِّ والعُلُو لا فى السفل والدَّنُوّ .

والصدق الواقعى فى الفن لا يعنى مطابقة الواقع الخارجى، أو الالتزام بوصفه علي ما هو عليه، ولـو كان كذلك لما سُمِّى فَنًّا، وإنما سمى وصفا وتقريرا .

والإبداع فى الفن ليس في وصف المحسوس، وإنما فى تجسيد غير المحسوس، ولا يخلو هذا الإبداع من نجوى بعيدة القرار، أو شكوى لقلب تضنيه الحسرة، ويفتته الأسى، أو شعور تبلغ درجة حسه وإرهافه أن يكون من دقته كأنه بغير عقل يوجهه، فينتفى الواقع الذى يجرى الناس عليه، وتعود الحقائق وكأنها برهان من نفسها على رسم الصُّورَةِ التى تخلق الحب، والفكرةِ التى لا تفهم وإن أُلِحَّ فى طلب الفهم، والخيال الذى يسافر من وجود الى وجود، بأجنحة أثيرية، لاَ حَدَّ لانطلاقاتها، ولا حاجز فى آفاقها، والطبيعةِ التى تعمد إلى المعانى فتستحضر كرائمها وتستولد عقائمها حتى تحدث فى النفس تخييلا وإيهاما يجعلانها تنبسط وتُقْدِمُ على ما تعلم يقينا كذبه، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنقبض وتحجم عما تعلم يقينا صدقه، إذا اختلف المقصد، وعُدِلَ بالكلام على غير وجهه.

وفى اللغة العربية -دون ما شك - متسع من خلال ألفاظها وأوضاعها وتراكيبها، للإفصاح عن أدق الأفكار، وأرق العواطف، وأبعد التصورات.

والشعراء العرب إلى جانب إحساسهم بالجمال، وامتلاكهم أدواته وقدرتهم على تشكيل المعانى عرفوا التثقيف والتنقيح والتهذيب، حتى أطلق على طائفة منهم "عبيد الشعر"، وعرفوا الصورة الشعرية الرامزة التى سَمَتْ إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشرى، والفكر الإنسانى فى زمانهم فاستنطقوا اللغة بما يعجز عن التعبير عنه لسانها، وأفهموا من إيحاءاتها أضعاف مايفهم من كلمتها واهتدوا إلي منهج الشعر من حيث بناؤه الفنى وصياغته التى توظف الكلمات والصور والاستعارات توظيفا جماليا، ووصلوا ببراعة واقتدار عجيبين بين الجمالين : الجمال الطبيعى، والجمال الفنى، وملئوا الصور الشعرية بالحياة والحركة، وعبروا عما يحسون، وإن صادم العرف والأخلاق والدين.

أما النقاد القدامى - وعلى رأسهم الجاحظ - فقد قوموا النص الشعرى من وجهة جمالية، ونعنى بذلك خصائص الصياغة الفنية (والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والبدوى والقروى والمدنى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)[1] واذا كان العرب قد أحسوا الجمال، وانعكس هذا الاحساس على وصفهم وظهر بوضوح في قوة ملاحظتهم لكل ما حولهم من أشياء الصحراء

---

(١)راجع الحيوان للجاحظ ٢/ ١٣١، ١٣٢، وطبيعة الشعر لمحمد العزب صـ٤١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المترامية الأطراف البعيدة الأرجاء، فإن هذا الوصف، وذلك الوضوح كانا فى الأشياء المحسوسة، وقد أعانتهم اللغة ووسائلها البلاغية على دقة الوصف والتصوير فأسرفوا فى التشبيهات، والاستعارات، وكان لتزاحم التشبيهات الحسية فى البيت الواحد (واستغناء الشاعر بها عما ينبغى من الوقوف عند بعض جزئياتها، والإفاضة فى تحليلها ووصفها)[١] سبب مباشر فى جمود الحركة التجديدية فى الصورة الأدبية، واستبعاد الابتكار والبكارة فى الصورة المجازية والحيلولة بين الشاعر وبين التحليل النفسى لبعض خلجاته الشعورية.

اللهم إلا إذا قرأنا نصوص الشعر العربي قراءة تمنحه ثراءً فنيا، وتطلقه من قيود القراءات المباشرة السطحية، وتفسح المجال لبدائل كثيرة من الفهم لما وراء صوره من أهداف وغايات، وتتعامل معه من حيث منهجه التصويرى الممعِنُ فى الوصف الحسِّى تعاملا يوسع قاعدته، ويعدد فائدته، ويجعله أنهارا عذبة متعددة الطعوم، من غير تباين بينها، وإنما بعضها أحلى من بعض.

وما دام النص يتحمل أكثر من وجه تأويلى، بأس من الجوس خلال معانيه، وتقليبه علي كل وجوهه المحتملة، وتأكيد معنى التلاحم العضوى بين لوحاته المتعددة، حتي تظهر القصيدة وهى كما قال الحاتمى :- (من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم متصلا به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتُعَفِّى معالم جماله.)[٢]

---

(١) قضايا ومواقف لعبد القادر القط / ١٣٣ .

(٢) العمدة لابن رشيف - ط ١ - ٢/٩٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقصيدة "كعب بن زهير " التى أنشدها بين يدى النبى - ﷺ - بعد أن أهدر النبى دمه، وعاش حياة ممزقة، يطارده الموت فى صحوه، ويقض مضجعه فى منامه، بلوحاتها الفنية المختلفة المؤتلفة خير مثال لذلك .

لم يجد كعب بن زهير - وقد عاش مرارة التجربة، وتجرع غصصها - مناصا من الرجوع إلى الظل الظليل ، والفئ الحنون، والرحمة المهداة - ﷺ-ليعلن إيمانه، ويبوح بمكنون صدره، ويصور رواجفه النفسية فى شعر وضعه فى مصاف الكبار من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين .

وليس من الحكمة، وهو يخوض تجربة، ويقف موقفا، كل الصحابة فيه واجم كتوم، ليس فيهم إلا عيون تتجهمه وتنكره وتتحرش به، وهى عيون الأنصار، وعيونٌ ترق له، وتشفق عليه، وتتمنى توفيقه، وتفرح بصفح الرسول - ﷺ - وعفوه عنه، وهى عيون المهاجرين، أن يستهل قصيدته بالغزل الحسى الذى يتناقض مع طبيعة الموقف الذى هو فيه بين الحياة إ ن قبل النبى توبته والموت إن أخذه بسوء فَعْلته .

ويتناقض أيضا مع الجلال والهيبة والوقار الذى ينشره الله على كل مجلس فيه رسول الله - ﷺ-.

وليس من الحكمة منّا أيضا، ونحن نقرأ قصيدة كعب بن زهير التى قالها فى مدح الرسول - ﷺ- أ ن نحملها على ظاهرها، أو أن ندرسها بمقياسين :-

مقياس أدبى :- إذا قرأناها أو درسناها دراسة نصية .

ومقياس خلقى :- إذا درسناها من حيث محتواها، وما فيه من مطابقة للخُلق أو عدمها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذلك لسببين :-

أولهما :- أن الأدب الرفيع هو ما جمع الرقى بكلتا ناحيتيه الفنية والخلقية، والأديب الحق، هو الذى يفهم رسالة الأدب، وهى الحرية لكن ليس على حساب الاخرين، والالتزامُ بالروابط والقيود التى تجعله فردا فى خلية ولبنة فى مجتمع حياته حياة له، وموته موت له، والاحترامُ للإنسانية من غير عبث بعواطفها، أو إثارة لمشاعرها، والانطلاق فى آفاق المبانى الشفافة والمعانى الشريفة .

فإذا انفلت الأديب من هذه الرسالة (كانت حدوده الإنسانية جسمه ولذات جسمه، فهو فى مقدار هذا الكون كالميت المحدود من الأرض كلها بقبره وتراب قبره، وإنه ليجد جسمه، وأكاذيب الطبيعة عليه، ولكنه لن يجد الروح وحقائقها.)(١)

ثانيهما :- أننا أمام شاعر يؤمن بأن الفن معاناةُ تجربةٍ، ومعاناةُ تشكيل وصياغة، ويعرف قيمة الكلمة الشريفة الأمينة وأثرها الحسنَ على قائلها، وعلى المجتمع من حوله، وعلى الإنسانية جمعاء، ويدرك تماما أن منطق المغايرة للطبيعة وحركةِ الوجودِ الكونىِّ والإنسانى، والسير فى الاتجاه المعاكس، قد يصيب المجتمع بحالة من التهدم والإنهيار الآنيَّيْنِ، ثم تطؤه بعد ذلك عجلة الزمن ويتحول إلى حطام فى مزبلة التاريخ .

يتعين علينا إذن أن ندرس اللوحات الفنية التى تحمل معنى الوصف الحسى المجرد للمرأة فى قصيدة "كعب بن زهير" دراسة تتفق مع جلال الموقف ورهبته وجلال مقام النبوة الطاهر وعظمته .

---

(١) وحي القلم ٣/٢٥ .

دراسةً لا تفرق بين كلا المقياسين الأدبى والخلقى، وإنما تجمع بينهما في تناسب وتوازن، يجعل الصورة الأدبية تشع بمعناها صافية لألاءة كما يشع الألماس فى كل جهة .

والحس الأدبى السليم الذى يوجه المعانى على مقتضي الحكمة، ويسددها فى مثل هذه التجارب نحو الحق والخير، يقضى بأن تكون "سعاد" هذه إشارة إلى سعادته التى فارقته إلى غير عودة ، وولّتْ عنه مدبرة إلى غير رجعة من يوم أن أهدر النبى - ﷺ - دمه، وقد كان بها من قبلُ هادئًا ثابتا على جميع أحوالها من الرضا والغضب، والقرار والفرار .

أما وقد فارقته إلى غير عودة، وتركته نَفَسًا يتردد، وحركة تتبلّد وحياة خير منها الموت الزؤام، فقد جاء يطلبها وينشد الوصول إليها حيث أمست كما قال :-

أمست سعاد بأرض لا يبلغُها ... إلاالعتاق النجيبات المراسيل

ممتطيا فى الوصول إليها سعادة الدنيا والآخرة المتمثلة فى الإيمان الذى تمكن منه بعد أن اخترم شغاف قلبه تمكنَ الفارس من صهوة جواده، والحادى من ظهر ناقته، ملقيا عصا التسيار في حضرة نبى الرحمة - ﷺ - ليقطع بالذهاب إليه ألسنة الغواة والوشاة، وتبرأ الأصدقاء والقرناء :-

تسعى الغواة جنابيها وقولهُم ... إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يستمر في الإنشاد والتدفق، والبوح بمكنون ضميره، والرغبة في تغيير مصيره فيأمل في عفو رسول الله - ﷺ -عنه ويعتذر عما وصله عنه من قول الوشاة ، ثم يضف مقامه وهيبته - ﷺ -وصفا لم يقله أحد قبله، ولم يبلغه أحد بعده، إلى أن يصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فيشرق وجه النبى- ﷺ- ويشير بكمه إلى من حواليه من أصحابه أن يسمعوا.(١)

(هل يمكن إذن أن نقول بأن "سعاد" المدخل فى القصيدة هى الحب المطارد والدفء المهدد، والقرار الآيل للغروب ؟ وليست "سعاد " الأنثى هنا سوى معادل موضوعى لهذه الأحضان الوثيرة الثلاثة التى توشك أن تنطفىء فى لحظات ؟)(٢)

والمعادل الموضوعى هو (ألا يعبر الكاتب «ناثرا أم شاعرا» عن آرائه تعبيرا مباشرا بل يخلق عملا أدبيا فيه مقوماته الفنية الداخلية التى تكفل -فنيا - تبرير الأحاسيس والأفكار للإقناع بها، بحيث لا يحس المرء أن الكاتب يفضى إليه بذات نفسه بإثارة المشاعر دون تبريرلها.)(٣)

إن قراءة النصوص الشعرية فى الأدب العربى وبخاصة القديم على هذا النحو الجمالى من الرمز والتكثيف الدلالى يمنحها حياة جديدة، ويخرج بها من

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني صـ٤٣٢ (٢) البعد الآخر في الإبداع الشعري لمحمد العزب/ ٧٥

(٢)طبيعة الشعر صـ١٤٣

(٣) النقد الأدبي الحديث . لمحمد غنيمي هلال ، ص ٣٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دائرة الأطر المعلومة، والقيود المرسومة التى تمنعها أو تحول بينها، وبين معانقة الحياة والتملّى منها، والقبض على أرواحها .

وكل قصيدة لها أسلوبها وجوها وإيحاءاتها، فشعر الموضوع الذى يجسد الوجود المادى فى وجود فنى له أسلوبه فى البحث والدرس .

وشعر التشكيل الجمالى باللغة الذى يستعصى تفسير لوحاته الفنية على ظاهرها كما هو الحال فى قصيدة كعب بن زهير، له أسلوبه فى تناول معطياته والتعامل مع إيحاءاته .

وأما شعر الرؤية الذى يعكس الواقع الخارجى، ويعالج ظواهر الكون والإنسان معالجة فنية وفكرية، ويكشف عن أثر هذا الواقع على فكر الشاعر ونفسه من خلال الرؤية الخاصة للشاعر التى قد تتفق وقد تختلف، بحسب فلسفة الشاعر، ونزعته الفكرية فهو يتخذ من الظواهر الكونية، نقطة بدء. وإشارة انطلاق إلى عالم قد يختلف من حيث تكوينه البدئى عن عالم الواقع وذلك يعنى إعادة خلق الأشياء أو تكوينها وبنائها من خلال التفكير فيها (فهو رؤية خاصة لواقع وجودى فى واقع فنى.)[1]

وهذا النوع من الشعر يكثر في قصائد فلاسفة الشعراء وحكمائهم وفى شعر المتصوفة والزنادقة .

هذه المحاور الفنية الثلاثة :- الموضوع، والرؤية، والتشكيل، تضيق دائرتها وتتسع بحسب طاقة الشاعر الإبداعية، لا بحسب الموضوع .

وتأتى مجتمعة فى قصيدة واحدة، ومنفردة في قصائد متعددة .

---

(١) طبيعة الشعر ، ص ١٤٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحس الفنى لدى الشاعر هو الذي يحيلها بالبناء الفني لها إلى وجود هامس ينفذ فى خفة إلى مكامن النفوس، وخفايا الأحاسيس، أو إلى وجود جهير ساخن يشع علي غيره، ولا يشع غيره عليه، ويحل حلولا شعريا فى كل من يلمسه، أو يحس نفسه في أى زاوية من زواياه، أو رؤية من رؤاه .

وإذا كان الشعر صناعة وثقافة كما قال ابن سلام فإن هذه الصنعة لن تؤدي دورها إلا إذا تألق الوجود الجمالى فى كل مسافة، وانبسط على كل مساحة، وأحس بنبضه كل قلب يرى الإنسانية كلها عائلة واحدة تسعى نحو المثل العليا من الخير والحق والحب والجمال.

الدكتور /محمود محمدلبدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner